الحمار الفلسطيني

2 - يونيو - 2025

لن يكون مفاجئاً لأي متابعٍ للحرب الوحشية على غزة أن يجد بين يديه مرثية حزينة لحميرها، لحمار يحتضر، يلفظ أنفاسه الأخيرة، دون أن يتمكّن أحدٌ من مدّ يد العون له، فقلما تخلو صورة آتية من القطاع من هذا الكائن الوديع، الذي «لم يرفع عينيه قطُّ عن الطريق»، على ما يقول الكاتب الفلسطيني إبراهيم أبو هشهش في رثائيته الحزينة الجميلة.

في إمكان هذا الـ «كائن الذي لا يتكلم» أن ينطق مرة إذن، ليقول بدوره، وبحق: «أنا للطريق»، هو مَلِكُ الطريق الملتصق أبداً بدروب البلاد، الذي «لم يرفع رأسه يوماً إلى السماء»، ولِمَ يفعل؟ «فليس له ذنوب كي يطلب غفرانها»، حسب الكاتب الفلسطيني.

> انخرطت الحمير على الفور بكامل مسؤولياتها؛ تجرّ خزانات المياه، وأصبحت وسيلة النقل بالأجرة... لقد ساهمت بإنقاذ أرواح، وولادة أجيال جديدة عندما حملت النساء إلى أماكن الولادة الآمنة

«تلفظ أنفاسك هنا على قارعة الطريق
محاطًا بشهود نقلتَ جرحاهم إلى المستشفيات المتبقية
وحملتَ قتلاهم إلى المشارح المكتظّة والمقابر المرتجلة
رجال وأولاد صلّبوا أذرعهم على صدورهم مستسلمين ليأسهم

مثلما تستسلم الآن لاحتضارك الصامت

فلا مستشفى لك

ولا سرير لموتك».

صور الحمير ليست طارئة على المشهد الغزي. فقط في الحرب الأخيرة، بدتْ معذبة، هزيلة، تعاني كسائر البشر في هذه البقعة المنكوبة من الأرض، أكثر مما يستحق أي كائن، إذ يصف كاتب فرنسي سَكَنَ المدينة لعامين، قبيل الدخول في الألفية الجديدة، عدداً من المفارقات فيها (على رأسها الفقر المدقع وعزّة النفس في آن)، ومن بينها «مشاهد الحياة اليومية المليئة بالمتعة والبهاء: العربات التي تجرّها الحمير، والمكتظة بأحمال الفواكه والخضروات، أو كتل الإسمنت. أسواق تضج بالحياة والحركة وحوانيت الصناع التقليديين. أصوات المؤذنين المختلطة بصياح الديكة وزمامير السيارات. مواكب أعراس لا نهاية لها، أو جلسات سمر حول كأس شاي أو فنجان قهوة في منزل أحد الأصدقاء».

منذ ذلك الوقت ستَرِدُ تقاريرُ صحافية عديدة، وصورٌ أكثر، تتناول أحوال رفيق درب الفلسطينيين، الذي عانى مصاعب الحصار مثلهم تماماً.

في البدء كانت الحمير في كل مكان، وكانت تُستخدَم كما الحال في أي منطقة ريفية، لكن الحظر الإسرائيلي، الذي حَدَّ من دخول الشاحنات والوقود، دفع الغزيين إلى العربات التي تجرّها الحمير لنقل المنتجات ومواد البناء والنفايات وسواها. ووُصِفَ مركز مدينة غزة، مع وجود هذا الكم من العربات، بأنه أضاف «حسّاً من القرن التاسع عشر إلى حركة المرور الفوضوية».

في مرمى النيران

بدأ التغيّر في كانون الأول/ ديسمبر 2021 عندما قررت إسرائيل منع استيراد الحمير، متذرعة بـ»جماعات الرفق بالحيوان، بعد تقارير عن انتشار معاملة سيئة للحمير في غزة، بما في ذلك نقلها في حاويات مزدحمة والعمل الشاق وسوء التغذية».

انخرطت الحمير على الفور بكامل مسؤولياتها؛ تجرّ خزانات المياه، وأصبحت وسيلة النقل بالأجرة، وتحمل الخردة من كل الأنواع. كما أنها

تسلّم الخشب لمواقد الفحم والمنتجات، إلى أن وصلنا إلى الحرب الأخيرة فباتت هي سيارات الإسعاف تنقل الجرحى إلى المشافي، والشهداء إلى مثاويهم الأخيرة، لقد ساهمت بإنقاذ أرواح، وولادة أجيال جديدة عندما حملت النساء إلى أماكن الولادة الآمنة.

هذا ما يفسّر استهدافها من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي، هو الذي تعمد استهداف المشافي وفرق الإغاثة والصحافيين وآبار المياه وسيارات الإسعاف ومخازن الأغذية. للاحتلال أسبقيات في جريمة استهداف الحيوانات، نتذكر تلك التجربة بقرات بيت ساحور الـ 18، عندما حاولت هذه البلدة الفلسطينية دعم عصيانها أثناء الانتفاضة الأولى باستقلالية اقتصادية. لكن الاحتلال لم يتحمّل الفكرة، لاحق البقرات واحدة إثر واحدة، إذ حاول أبناء البلدة إخفاءها عن الأنظار هنا وهناك، تماماً كما يخبئون ويحرسون مقاوماً عزيزاً.

> تعذّب طويلاً حمارُ المسيح مع الغزيين المحاصرين، المطرودين أبداً، والذي زُجّ في مواجهة الميركافا والمسيّرات الإسرائيلية

لكن حمير غزة لعبت دوراً أكبر، مع كل التقدير لبقرات بيت ساحور، ولم يتردد الاحتلال في قصفها مباشرة.

كل هذا من دون أن تشكو الحمير أو تنق، ليس هذا من طبعها على أي حال: «أنت الذي لم تجْأَرْ بالشكوى من البشر الذين أثقلوا أحمالك، وألهبوا ظهرك بالسياط»، على ما يقول أبو هشهش، ولكن لم يستطع بعضها، على ما ورد أيضاً في تقارير صحافية، أن لا يصاب بالذعر عند القصف الإسرائيلي الوحشي، فهذا يصيب حتى الله بالرعب، أما إنْ بدا عليها التعب فليس باليد حيلة، فالأعلاف قلّت، خصوصاً أن الغزيين الجائعين استخدموها، من بين بدائل عديدة، للخبز العزيز والغائب كلياً عن موائدهم. انظر إليها (الحمير) في الصور الآتية من غزة كل يوم، معاناتها لا تخفى، قوائمها، هزالها، الأعباء الملقاة على كاهلها، من أين يأتي أبو صابر بكل هذا الصبر! إذا كانت هذه الكائنات العنيدة، الجبارة، المثابرة،

قد ضعفت إلى هذا الحد، فكيف هو حال الغزيين المتبقين على قيد التنفس!

حمار المسيح

رغم هذه الأحوال القيامية ستجد أن هناك من بين الغزيين من يبتكر فريقاً حمل اسم «ملاذ آمن للحمير» في غزة أنشأ «عيادات على جانب الطريق، لتوفير الإغاثة للحمير والخيول التي تعاني من جروح مروّعة بسبب اللجام، بالإضافة إلى الإصابات الناجمة عن الصواريخ والقنابل». بل إن الفريق أطلق نداءات للتبرع لإنقاذ حياة وحماية حمير غزة، وليس في ذلك أي ترف أو ادعاء، فهم يؤكدون أن «هذه الحمير هي الخيط الأخير الذي يربط الناس بالخدمات الأساسية التي يحتاجون إليها بشدة»، و«عندما نساعدهم، فإننا لا ننقذ حياةً فحسب، بل نحافظ على رابطٍ مقدسٍ بين البشر والحيوانات. نحن نبقي الأمل حيًا».

هذا هو الرابط الذي أنشأه السيد المسيح عندما أصرّ على ركوب حمار في دخوله إلى القدس. أراده رمز تواضع وسلام، في مواجهة خيول المحاربين والملوك.

> انظر إليها في الصور الآتية من غزة كل يوم، معاناتها لا تخفى، قوائمها، هزالها، الأعباء الملقاة على كاهلها، من أين يأتي أبو صابر بكل هذا الصبر!

تعذّب طويلاً حمارُ المسيح في غزة، مع الغزيين المحاصرين، والمطرودين أبداً، والذي زُجّ في مواجهة الميركافا والمسيّرات الإسرائيلية. مواجهة عسيرة وغير متكافئة من الأساس.

لقد آن لها حقاً أن تستريح، أن تعود إلى وظيفتها الأولى؛ نقل الماء والحطب في الدروب الجبلية على مهل، والفلاحة برفقة أغان ريفية حلوة، والنوم في ظلال جدار طيني سميك، وأن تموت، إذا لا بدّ، «كما يموت الميّتون». من دون أن يطالبها أحد بخوض معركة، وكان الراحل الفلسطيني إميل حبيبي، الباقي أبداً في حيفا، قد جعل منها في «المتشائل» رمزاً للبقاء في البلاد بعد نكبة العام 1948، حمير وادي

النسناس، ومن الطيرة والطنطورة وعين غزال وإجزم وعين حوض وأم الزينات.. «التي ظلّت سائبة أكثر من سنة.. صينت من العقل، فلم تهاجر».

يطلب أبو هشهش، في مرثيته، الغفران:

«نحن الذين نطلب منك الغفران، فاغفر لنا شقاءك.
واترك لنا نحن أن نحصي قتلانا:
ثلاثة وخمسون ألفاً وستمئة وأربعون رجلاً وامرأة وطفلاً
لا رقم لك بينهم».

لكن غداً، حين تذهب الحرب، لن ينسى الغزيون رفاق الدرب، ربما يفرشون لهم العشب وسعف النخيل. قد يسمّون ساحة باسمهم. ربما يشيدون تمثالاً، وربما أكثر:

«ستُحْسِنُ صُنعاً لو اخترتَ، ياشعبي الحيّ، رمز الحمار البسيط»

على ما يقول شاعرهم.

*** كاتب من أسرة «القدس العربي»**

كلمات مفتاحية

أزمة إنسانية في غزة | إميل حبيبي | الإبادة الجماعية في غزة | الحمير في غزة

راشد عيسى | محمود درويش

اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق

فريد يونيو 2, 2025 الساعة 11:40 م

نافذة على حرب غزة ... تفيض بالانسانية والابداع . لا أدري لماذا ينعت بعضهم باسم هذا المخلوق الذي يكنى أيضا بأنه مهندس طرق من الطراز الرفيع !

رد

ابن سعدون يونيو 3, 2025 الساعة 8:42 ص

هذا الحمار أفضل من المطبعين، يحمل الناس والبضائع وينقل امتعتهم ويحمل الجرحى والشهداء وهو يعمل بإخلاص في خدمة أهلنا في غزة

رد

د. رامي يونيو 3, 2025 الساعة 1:10 م

ما هو الأدق والأفضل تعبيرا، (الحمار الفلسطيني) أم (الحمار في فلسطين/حمار الفلسطينيين)؟!!!... علميا الحمار الذي يعيش في فلسطين هو نفس الحمار الذي يعيش في بلاد عديدة من منطقة الشرق الأوسط والجزيرة العربية...

رد

د. رامي يونيو 3, 2025 الساعة 8:14 م

هناك قيمة سامية في الإنتماء لسؤال الضحية...
الضحية واحدة والجلادون كثر...

عابر سبيل يونيو 3, 2025 الساعة 3:14 م

الحمار الفلسطيني ساعد أهل غزة في هذه الإبادة أكثر مما قدمه معظم الحكام

رد

أسامة كلّيّة سوريا/ألمانيا

يونيو 3, 2025 الساعة 4:44 م

شكراً أخي راشد عيسى. كنت أرافق حمارنا الطيب الوديع الذي كان ينقل لنا الماء في "الراوية" من البير إلى البيت، ومع أن المسافة ليست طوية لكن كانت هناك طلعة يجب عليه أن يتغلب عليها بثقل الماء الذي يحمله ، فكنت أراقب كيف كان يسير فيها يميناً ويساراً بالعرض (حوالي أربعة أمتار) بشكل حلزوني فكان يجعلني دوماً أفكر ياله من حيوان (ليس غبياً كما يقال) يعتمد على حدسه في تجاوز الصعاب. وأظنه بهذا أكثر ذكاءً من نتنياهو المجرم الفاشي الفاسد الذي مازال لايعرف طريق إلى الهروب إلى الأمام. ورحم الله الشهداء ولكم الله ياشعب فلسطين.

رد

الجنتلمان

يونيو 3, 2025 الساعة 7:54 م

يجب ازالة جميع الصور الرسمية من على كل الحيطان من كل الدوائر العربية من المحيط إلى الخليج ويجب تعليق صور الحمار الفلسطيني شامخا أذنيه في حالة نهاق ورجولة .وشرف مفتقدة عند جميع من اعني وجميع الموالين.
عاش الحمار الفلسطيني عزيزا مكرما مرفوع الراءس والأذنين وتسقط كل رموز العهر والذل والخيانة .

رد

فصل الخطاب

يونيو 5, 2025 الساعة 9:13 ص

الحمار الفلسطيني كان منذ عهد صاحب الحمار الناصري عيسى بن مريم الصديقة يا رفيقة ✌️ PS 😎☝️

رد

اشترك في قائمتنا البريدية

أدخل البريد الالكتروني *

اشترك

حولنا / About us

أعلن معنا / Advertise with us

أرشيف النسخة المطبوعة

أرشيف PDF

النسخة المطبوعة

سياسة

صحافة

مقالات

تحقيقات

ثقافة

منوعات

لايف ستايل

اقتصاد

رياضة

وسائط

الأسبوعي

جميع الحقوق محفوظة © 2025 صحيفة القدس العربي

adberries